لماذا ألفوا؟ 3 - 3
وراء تأليف كل كتاب أسباب

محمد بن عبدالله الفريح - كاتب ومفكر
مدير إدارة النشر والترجمة شركة العبيكان للتعليم
malfriah@obeikan.com.sa

سنذكر في الجزء الثالث من هذه المقالات الأسباب الأساسية لتأليف الكتب الإحدى عشر الأكثر تأثيراً في تاريخ البشرية ! وإن كانت هذه العبارة تعتبر مجازاً أي تختلف نسبتها وتقييمها من شخص لآخر ومن منظمة لأخرى ومن فكر لمثله، وبعد البحث وجدت أن أهم أسباب تأليف هذه الكتب ما يلي:

الكتاب الأول: الأمير – مكيافيلي في سبب تأليف كتابه فيقول:

«عندما يحل المساء أعود إلى البيت، وأدخل إلى المكتبة، بعد أن أنزع عني ملابسي الريفية التي غطتها الوحول والأوساخ، ثم أرتدي ملابس البلاط والتشريعات، وأبدو في صورة أنيقة، أدخل إلى المكتبة لأكون في صحبة هؤلاء الرجال الذين يملئون كتبها، فيقابلونني بالترحاب وأتغذى بذلك الطعام الذي هو لي وحدي، حيث لا أتردد بمخاطبتهم وتوجيه الأسئلة لهم عن دوافع أعمالهم، فيتلطفون علي بالإجابة، ولأربع ساعات لا أشعر بالقلق، وأنسى همومي، فالعوز لا يخيفني والموت لا يرهبني، لقد تملكني الإعجاب بأولئك العظام، ولأن دانتي قال: «يُحفظ العلم الذي يأتي بالتعلم». ولقد دونتُ ملحوظات من محاوراتهم، وألفت كتاباً عن الإمارات، حيث أنكبُّ جاهداً في التأمل والتفكر بما يتعلق بهذا الموضوع، مناقشة ماهية الإمارات، وأنواعها، وكيفية امتلاكها، ولماذا تُفقد، وعليه فهذا على الأرجح سيعجبك، إلا أنه لأمير جديد سيكون محل ترحابه، ولذا فقد أهديتُ الكتاب لجلالته جوليانو. وقام فيليبو كازافتشيو بإرساله، وسيخبرك عن محتواها وعن حواري معه، ومع ذلك فما زالت تحت التنقيح».

ولقد تعرض الكتيب للعديد من التغيرات قبل أن يستقر على الشكل الذي هو عليه الآن. ولسبب ما تم إهداء الكتاب للورينزو الثاني دي ميديشي، مع أن مكيافيلي ناقش كازافتشيو إذا ما كان من الأفضل إرساله أو عرضه شخصياً، إلا أنه لم يثبت أن لورنزو قد استلم الكتاب أو حتى قرأه، وبطبيعة الحال لم يقم بتوظيف مكيافيلي. ولم يقم مكيافيلي بنشر الكتاب بنفسه، وقد اختلف فيما إذا كان النص الأصلي للكتاب لم يتعرض للتحريف، إلا أنه قطعاً تعرض للسرقة الأدبية. وختم مكيافيلي رسالته إلى فتوري قائلاً:«وبالنسبة لهذا الكتاب الصغير، عندما يُقرأ، فسيتراءَ لقارئه أني لم أنم أو أتكاسل في دراسة فن السياسة وإدارة الدولة طوال الخمسة عشر عاما التي قضيتها متنقلا بين الملوك، وعليه الرغبة في أن ينهل من خبرة هؤلاء».

الكتاب الثاني : المبادئ – إسحاق نيوتن:

لعل من أعظم الكتب التي أتحفت تاريخ البشرية وكشفت أسرار الحياة و قوانين الطبيعة هو كتاب (المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية) للسير إسحاق نيوتن، هذا العالم الذي يعتبر زينة للجنس البشري بفضل القوانين الثلاثة المهمة التي وضعها والتي فسرت العديد من الظواهر الطبيعية والتي نحن نقتبس من ما جاء فيها إلى يومنا، لقد وضع نيوتن في هذا الكتاب جميع القوانين والمبادئ التي توصل إليها وفسرها تفسيراً دقيقاً مرفقاً بمجموعة من المخطوطات والرسومات التوضيحية النادرة والتي توجد في هذا الكتاب ، إن هذا الكتاب هو أول كتاب اكتشف حركة الأجسام وحلل الظواهر الميكانيكية الطبيعية تحليلاً متناهياً في الدقة كل ما نعرفه من قوانين نيوتن ولدت في هذا الكتاب الذي كتبه باللاتينية ليتجنب الجدل الفارغ من غير المتخصصين. سوف نعرف حقيقة أن نيوتن كان كارهًا للجدل عازفًا عن المعارك فلو لم يتدخل الفلكي الشهير (هالي) – مكتشف المذنب المعروف باسمه – لما خرج هذا الكتاب للنور، ولسوف نجد أن (نيوتن) لم يكن ممن يجيدون التعبير عن أنفسهم مثله مثل (داروين).

لقد جمع ذلك الكتاب كلّ ما هو معروف عن الحركة في الكون، ووحّد الظواهر الطبيعية المختلفة في إطار واحد خاضع للقوانين نفسها مما جعل عدداً من العلماء يشتكون لسنوات عديدة أن نيوتن لم يترك لهم شيئاً يشتغلون به، ووصف العالم الفرنسي (بيير دو لابلاس) هذه الحال بأسلوب حاذق عندما قال: «إن نيوتن كان محظوظاً مرتين؛ المرّة الأولى لأنه كان يملك قدرة لاكتشاف أساس الكون الفيزيائي، والمرة الثانية لأنه لا يمكن أن يكون له منافس أبداً نظراً لأنه لا يوجد إلا كون واحد يمكن اكتشافه».

الكتاب الثالث : النسبية – ألبرت أينشتاين:

النظرية التي هزت العالم والتي لم يفهمها الكثيرون لكن لديهم فكرة عامة عما تعنيه

في عام 1916 نشر أينشتاين بحثه عن نظرية النسبية العامة وكان يمثل هذا البحث عشر سنوات قضاها في التفكير الشديد، استطاع أينشتاين بومضة عبقرية أن يكتشف علاقات الكون الأساسية ويربطها ببعض، فالمكان ذو ثلاثة أبعاد: طول وعرض وارتفاع. ولكن الزمن هو بعد رابع، إلا أننا لا نستطيع تصوره بسبب طبيعة تركيب عقولنا، والمركب (الزمان – المكان) مرتبط بدوره مع السرعة، وأعظم سرعة في هذا الوجود هي سرعة الضوء، فأينشتاين اعتبر أنه لا شيء ثابت في هذا الوجود إلا سرعة الضوء، وسرعة الضوء فقط، وبذلك مسح في أول ضربة نظرية الأثير القديمة، وأعطى التعليل الراسخ للتجربة التي قام بها عالمان جليلان هما (ميكلسون ومورلي) أجرياها بكل دقة من أجل قياس سرعة الضوء في كل الاتجاهات، وهكذا فالضوء ينتشر وبسرعة ثابتة، ومهما كانت سرعة حركة المصدر، وتبين أن سرعة الضوء رهيبة، حيث بلغت (300) ألف كم / ثانية، فلا غرابة إذاً إذا اعتبر ديكارت أن سرعة الضوء غير متناهية، أو فشل غاليلو في قياس سرعته، لأنه كان كمن يقيس الكرة الأرضية بالشبر!! وهكذا فالضوء يلف الكرة الأرضية سبع مرات ونصف خلال ثانية واحدة، ولا غرابة أن نتحدث مع من هم في أقصى الأرض بنفس اللحظة، كما يصل ضوء القمر في ثانية وثلث فقط، في حين أن ضوء الشمس يغمر الأرض بعد انطلاقه بثماني دقائق.

الكتاب الرابع: ثورة الأمم – آدم سميث:

اسم بالغ الأهمية بالنسبة لكل مهتم بالاقتصاد. إنه يعتبر بفضل هذا الكتاب أبو الاقتصاد الحديث، وهو من دعا إلى الاقتصاد الحر.

اعتبر سميث أن ثروة كل أمة تقاس بقدرتها الإنتاجية، وتناول الإنتاجية كمقياس للثروة التي يمكن مضاعفتها بتقسيم العمل. واهتم بطرق توزيع الثروة في المجتمع ووسائل تنظيم التجارة وتقسيم العمل، إضافة إلى أطروحاته المتعلقة بحرية السوق واليد الخفية التي تساهم في دفع الحركة الاقتصادية وتشجيع الاستثمار، ودعوته إلى الحد من تدخل الدولة المباشر في تنظيم العمل.

الكتاب الخامس: رأس المال – كارل ماركس:

الكتاب الصعب المعقد الذي أدى لأهم انشقاق عقائدي في العالم وأدى لحرب باردة طالت نحو قرن، وأدى لأشهر ثورات القرن العشرين .. لقد تحولت لفظة (ماركسية) إلى لفظة لها ذات قوة الدين .. هذا كتاب غني عن التعريف وإن كان قليلون جدًا قد قرءوه كاملاً..

عالم الطبيعيات، لكي يقف على طرائق الطبيعة، إما أن يدرس الظاهرات حين تعرض ذاتها في أبلغ أشكالها وأقلها تشوشاً مجالات الفوضى والخلل، أو أنه يجري تجاربه في شروط تؤمن انتظام سيرها ما أمكن. من هنا فإن ماركس في كتابه هذا يدرس أسلوب الإنتاج الرأسمالي، وعلاقات الإنتاج والتبادل المطابقة لها. وهو يقول بأن إنجلترا بالنسبة له هي المكان التقليدي (الكلاسيكي) لهذا الإنتاج، لهذا السبب هو يستعير من هذه البلاد الأحداث والأمثلة الأساسية المستخدمة بمثابة صور توضح تطور نظرياته. وإلى هذا فالأمر لا يتعلق بالنور، الكامل تقريباً، للمنازعات الاجتماعية التي تولجها القوانين الطبيعية للإنتاج الرأسمالي؛ ولكنه يتعلق بهذه القوانين نفسها وبالاتجاهات التي تظهر وتتحقق بحتمية فولاذية. وبالنسبة لماركس إن البلد الأكثر تطوراً في الصناعة من شأنه أن يبين لتلك البلاد التي تتبعه على صعيد الصناعة، صورة لمستقبلها الخاص.

وفي هذا الكتاب سوف يكون الفصل الأول وبخاصة القسم الذي يتضمن تحليل البضاعة، على شيء من الصعوبة على الإفهام، أما فيما يختص بتحليل جوهر القيمة وتحليل كميتها، فقد جهد المؤلف، كما يذكر، لجعل عرضها واضحاً قدر المستطاع، يسهل بلوغه على جميع القراء.

إذن، فقراءة هذا الكتاب لن تصعب على القارئ، باستثناء ما يختص بشكل القيمة، والمؤلف يتوجه طبعاً إلى قراءة يريدوا أن يتعلموا شيئاً جديداً، ويريدون بالتالي التفكر بأنفسهم. وهذه لمحة عن أهم المحاور التي عالجها كارل ماركس في الأقسام الثلاثة في كتابه هذا في مجال نقد الاقتصاد السياسي لرأس المال: القسم الأول: نمو الإنتاج الرأسمالي، البضاعة والنقد، البضاعة، في المبادلات، النقد أو دورة البضائع. القسم الثاني: تحول المال إلى رأس مال: الصيغة العامة لرأس المال، تناقضات الصيغة العامة لرأس المال، شراء قوة العمل وبيعها. القسم الثالث: إنتاج القيمة الزائدة المطلقة: إنتاج القيمة الاستعمالية وإنتاج القيمة الزائدة، رأس المال الثابت ورأس المال المتغير، معدل القيمة الزائدة، نهار العمل.

الكتاب السادس: مقدمة ابن خلدون – عبد الرحمن بن خلدون:

إن الكلام عن عبقرية الإنسانية الممثلة بابن خلدون وعن رسالته في تاريخ العالم ومظاهر عظمته فيما خلّفه من آثار وبصمات في عقول العلماء وخاصة في مقدمته، التي تقلب صفحاتها، والتي أنشأ فيها علماً جديداً وهو ما يسمى الآن علم الاجتماع أو السوسيولوجيا وأتى فيها بما لم يستطع أحد من قبله أن يأتي بمثله، بل عجز كثير ممن جاء بعده من الأئمة والباحثين وعلم الاجتماع أن يصلوا إلى رتبته. وهذا إن دلّ على شيء إنما يدلّ على رسوخ قدمه في كثير من العلوم، حتى لم يغادره فرع من فروع المعرفة إلا ألمّ به ووقف على كنهه.

الكتاب السابع: كوخ العم توم – هاريييت ستاو:

هذا الكتاب فجر قضية تحرير الرق في أمريكا وأدى بشكل ما إلى نشوب الحرب الأهلية .. لا شيء كالأدب يجعلك تتبنى قضية أبطال سود يباعون كالحيوانات من يد ليد .. كتاب كتبته امرأة فغير تاريخ أمريكا.

كوخ العم توم إحدى أشهر الروايات في الأدب الأمريكي كله، لقد صورت فيها صاحبتها حياة الزنوج الأمريكيين قبل الحرب الأهلية، فألهبت أصحاب النفوس الكريمة وأثارت الرأي العام الأمريكي ضد المظالم النازلة بتلك الفئة من المواطنين، فكانت حرب تحرير العبيد (عام 1861) وثم النصر للولايات الشمالية على الولايات الجنوبية، وغدا اسم هاريييت ستاو رمزاً للمحبة الخالدة، تباركه ملايين الشفاه وتمجد العمل الذي قدمته صاحبته.

لقد اشتهرت رواية كوخ العم توم عند وصدورها، وتوالت طبعاتها وترجماتها شهراً بعد شهر. ليس هذا فحسب، بل إن خمسمائة ألف امرأة إنكليزية وقعن خطاب شكر موجهاً إلى المؤلفة، وجمعت اسكتلندا ألف جنيه من أشد سكانها فقراً، بنساً واحداً من كل شخص، كمساعدة رمزية لحركة تحرير العبيد.

الكتاب الثامن: الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية– إسحاق نيوتن:

كل ما نعرفه من قوانين نيوتن ولدت في هذا الكتاب الذي كتبه باللاتينية ليتجنب الجدل الفارغ من غير المتخصصين. سوف نعرف حقيقة أن نيوتن كان كارهًا للجدل عازفًا عن المعارك فلو لم يتدخل الفلكي الشهير (هالي) – مكتشف المذنب المعروف باسمه – لما خرج هذا الكتاب للنور، ولسوف نجد أن (نيوتن) لم يكن ممن يجيدون التعبير عن أنفسهم مثله مثل داروين لقد جمع ذلك الكتاب كلّ ما هو معروف عن الحركة في الكون، ووحّد الظواهر الطبيعية المختلفة في إطار واحد خاضع للقوانين نفسها مما جعل عدداً من العلماء يشتكون لسنوات عديدة أن نيوتن لم يترك لهم شيئاً يشتغلون به، ووصف العالم الفرنسي (بيير دو لابلاس) هذه الحال

كتاب رأس المال

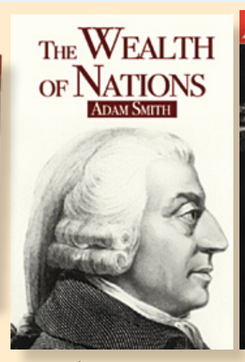

غلاف كتاب ثورة الأمم

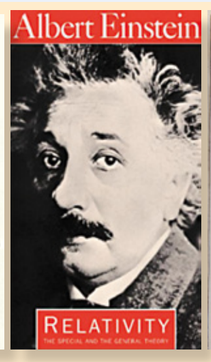

غلاف كتاب النسبية

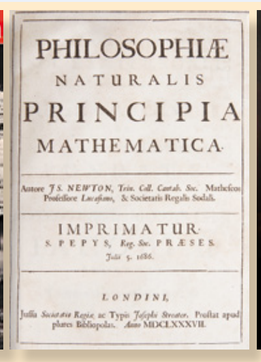

غلاف كتاب المبادئ

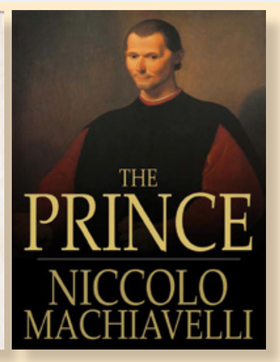

غلاف كتاب الأمير

بأسلوب حاذق عندما قال: «إن نيوتن كان محظوظاً مرتين؛ المرّة الأولى لأنه كان يملك قدرة لاكتشاف أساس الكون الفيزيائي، والمرة الثانية لأنه لا يمكن أن يكون له منافس أبداً نظراً لأنه لا يوجد إلا كون واحد يمكن اكتشافه.

الكتاب التاسع: أصل الأنواع - تشارلز داروين:

كتاب آخر أحدث صخبًا لم يتوقف .. إن أبحاث داروين في جزر (جالاباجوس) جعلته يصل لنظرية التطور والارتقاء وهي نظرية معقدة مفادها أن جميع الكائنات الحيّة تطوّرت من نفس الخليّة الأحادية النواة.. لكنه تلقى هجومًا شديدً أو إهانات لا بأس بها. وهنا يلعب (هكسلي) مع (داروين) ذات الدور الذي لعبه (هالي) مع (نيوتن).. إنه الخطيب المفوه حاضر الحجة الذي يدافع عنه وسط المحافل

أصل الأنواع كتاب من تأليف داروين صدر عام 1859 يعتبر أحد الأعمال المؤثرة في العلم الحديث وإحدى ركائز علم الأحياء التطوري. اعتبرت نظرية داروين، بتلوينها المختلفة، من أحجار الزاوية في العقلانية الأوروبية. لم يتردد توماس كون، في كتابه «بنية الثورات العلمية» (جامعة شيكاغو - 1962) في اعتبار ما فعله داروين أنموذجاً لما تكونه الثورة العلمية، بمعنى أنها النظرية العلمية التي لا تبقى مجرد تطور تقني، بل يبلغ من قوتها وجرأتها أن تضع منهجاً جديداً في التفكير، بحيث تغيّر جذرياً من المفاهيم الأساسية، وكذلك طرق التفكير، التي سبقتها. ووضعها على قدم المساواة مع الثورة التي أحدثتها نظريات السير إسحاق نيوتن، عند نشره كتاب «المبادئ الأساسية للفلسفة الطبيعية»، والتي وضعت حداً لسيطرة مقولات الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارتو ثنائياتها.

وفي العام 1996، اعتبر عالم الاناسة الأمريكي فرانك سولووي انداروين يفوق أهمية ألبرت أينشتاين، وأن نظرية الأول عن علاقة الإنسان مع الطبيعة أحدثت هزة في عمق نظرة الإنسان إلى هويته، وطريقة تفكيره في الطبيعة والكون، فيما انحصر الأثر الأساسي لنظرية النسبية، التي وضعها أينشتاين، في المجال العلمي، ولتغيّر في عمق نظرة الإنسان لهويته الكونية. وقارن أثر نظرية داروين وجرأتها، بالأثر الذي أحدثته المقولات الجريئة لعالم الفلك كوبرنيكوس (الأرض تدور حول الشمس وحول نفسها)، التي أطاحت بصورة نهائية فلسفة أرسطو ونظرياته عن الطبيعة والكون، وتقاطعت مع الانشقاق الذي قاده القس مارتن لوثر عن الكنيسة الكاثوليكية وباباواتها!

الكتاب العاشر: كفاحي - أدولف هتلر:

كتاب غني عن التعريف يمثل خطة هتلر المجنونة التي نفذها حرفيًا .. هذا الكتاب كتبه هو وفي السجن وقد اعترف ساسة أوروبا بأنهم كانوا حمقى لأنهم لم يقرءوه أو لم يقرءوه بجدية .. إنه خليط مجنون من الطموح والإستراتيجية والعنصرية والتاريخ والتنبؤ .. هذا الكتاب كلف العالم ملايين القتلى ..

ترادفت شخصية السلطة في زعامة هتلر بنوع حقيقي من التأليه، بالعودة إلى إحياء أشكال قديمة جداً لسلطة الملوك- الآلهة. والزعيم- وفق هذا المنظور عالم بكل شيء، وكل ما يقوله هو الحقيقة، وكل إرادة تصدر عنه هي بمثابة قانون للحزب والدولة.

إن قراءة (كفاحي) لأدولف هتلر عبرة لمن يعتبر عن الدكتاتور السياسي التوتاليتاري (الشمولي) الذي يحكم ويتحكم بعكس السياسي- الحكيم الذي يحكم بالحكمة بمنأى عن شوائب ومثالب العنصرية، والعرقية، ومنطق سيادة الأقوى وحق القوة لا قوة الحق والعدالة والخير العام.

الكتاب الحادي عشر: تفسير الأحلام - سيجموند فرويد:

هذا هو (كتاب تفسير الأحلام) بين يدينا.. إنه كتاب له شهرة وأهمية كبيرة في عالم النفس فضلاً عن شهرة ومكانة مؤلفه بين علماء علم النفس .. إنه (سيجموند فرويد) العالم الذي وضع من النظريات ما كان له وحوله العديد من الجدل والتأثير في مسار علم النفس. كتابه هذا نجده يتناول المؤلفات في مشكلات الأحلام والمنهج في تفسيرها.. ويتناول أيضا الحلم كتحقيق لرغبة ما ثم التشويه الذي يلحق بالأحلام يدرس كذلك عمل الحلم وسيكولوجية عمليات الحلم.. وبالطبع لا يمكن تجاهل الجانب أو العامل الجنسي في آراءه ونظرياته والتي تظهر جلية في تفسيراته للأحلام وفيما يتعلق بها.

هذا وإن كانت هذه الكتب ليست الوحيدة في أهميتها وقوتها إلا أنها أخذت من حيز وتفكير كثير من البشر الشيء الكثير، كما وأن هناك تحفظ كبير على بعض ما ورد في هذه الكتب ونحن هنا نذكرها لمجرد شهرتها وقوتها في التأثير على البشرية بغض النظر عن اتفقنا أو اختلافنا مع ما ورد فيها.

عبد الله البردوني ..شاعر اليمن المتمرد

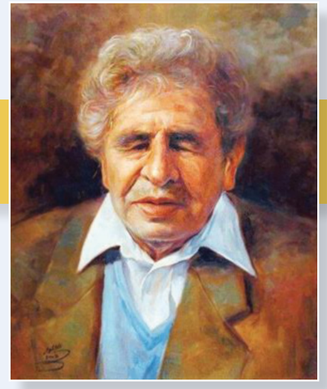

أحجار مرصوفة، وشاهد قبر في مقبرة (خزيمة)، ذلك كل ما منحته مدينة صنعاء لشاعرها عبد الله البردوني، لكن البردوني، وهو ينام في هذه الجبّانة المنهكة التي قدم إليها في 30 أغسطس/آب 1999، لم ينس أن يكتب على شاهد قبره أبياتا من شعره، يعلن فيها استعلاءه على أشكال التدجين والاحتواء.

إنه شاعر متمرد حتى وهو ميت.. قبل 15 عاماً رحل البردوني بعد حياة شعرية مثيرة، هادن فيها وتمرد، وصاحب وخاصم، وخالف المألوف، لكنه كان شاعرا مخلصا لمبادئه، وإنسانا مسكونا بالجمال.

ولد عبد الله صالح البردوني في قرية (بردون) من أعمال مديرية الحدا محافظة (ذمار)، عام 1929، وأصيب بالجدري الذي كان يحصد الآلاف من اليمنيين ففقد بصره وهو في العاشرة من عمره. ففقد بصره كلياً، درس القرآن في كتّاب القرية ثم انتقل إلى مدينة ذمار طلباً للعلم التحق بالمدرسة الشمسية بذمار فتلقى علوم الدين واللغة وعلم الكلام والأدب العربي والتاريخ.

اتُّهم بالزندقة فدخل سجن ذمار ومنه نقل إلى سجن صنعاء، فقضى فيه مدة قصيرة ، ثم دخل مدرسة دار العلوم بصنعاء، فأكمل دراسته فيها ثم عمل مدرساً للأدب العربي في المدرسة العلمية، وتنقل في عدد من الوظائف الحكومية.

بدأ تلقي تعليمه الأولي في قريته وهو في السابعة من العمر، وبعد عامين انتقل إلى قرية (الملة عنس)، ثم انتقل إلى مدينة ذمار وهناك التحق بالمدرسة الشمسية، وحين بلغ الثالثة عشرة من عمرة بدأ يغرم بالشعر وأخذ من كل الفنون إذ لا يمر مقدار يومين ولا يتعهد الشعر قراءة أو تأليفاً، قرأ ما وقعت عليه يده من الدواوين القديمة. انتقل إلى صنعاء قبل أن يتم العقد الثاني من عمره حيث درس في جامعها الكبير، ثم انتقل إلى دار العلوم في مطلع الأربعينيات وتعلم كل ما أحاط به منهجها حتى حصل على إجازة من الدار في (العلوم الشرعية والتفوق اللغوي)، ثم عين مدرساً للأدب العربي شعراً ونثراً فيدار العلوم.

وفي صنعاء العاصمة التقى عدداً من الشخصيات المستنيرة المتطلعة إلى حياة أفضل. عمد إلى التثقيف الذاتي فنهل من المكتبات الخاصة والعامة ولاسيما ما يتعلق منها بالفكر والأدب قديمه وحديثه مدفوعاً كغيره من معاصريه بارياح التغيير التي دخلت اليمن بعد الحربين العالميتين مدركاً أن الذي أسقط الحركات الوطنية هو التخلف الاجتماعي للشعب، فتعاطى السياسة في شعره ونثره فانتقلت القصيدة في شعره من التقليدية إلى الرومنسية فالرمزية فالواقعية، والمقالة إلى البحث والدراسة. ويظهر هذا عند مقارنة دواوينه وكتبه القديمة بالجديدة التي تناول فيها مختلف القضايا الفكرية والسياسية والاجتماعية والأدبية معتمداً على التداعيات ومبدأ الفكرة تجر الفكرة وشجون الأحاديث ويتعمد أحياناً في سبيل ذلك افتعال المواقف على نحو لا يجرؤ عليه غيره ليحرك الماء الآسن وفق تعبيره.

تميز البردوني عن غيره اللغة الشعرية التي تمكّن من انتزاعها من البيئة المحلية اليمنية وإدراجها في سياق النص الشعري الفصيح، وتخصيب نصه بالرموز الإنسانية التي تمنح النص ثراء دلالياً وتوسع أفقه الثقافي، واشتغال نصه الشعري على أسلوب المفارقة، الأمر الذي منحه طاقة جديدة، وفتح أمام المتلقي مفاجآت من شأنها أن تكسر أفق التلقي، واستلهام المعطيات السردية في النص، والشغف بالتجريب الذي لا ينبت عن الأفق الرؤيوي للشاعر.

البردوني علامة فارقة في مسيرة الشعر العربي الحديث، لأنه تمكن من تطويع القصيدة لمقتضيات حركة الحداثة الشعرية من زاويتي الرؤية والبنية، مع الحفاظ على الشكل الخليلي الذي ظل وفيًا له دون سائر شعراء العربية الذين جايلوه.

رأس البردوني لجنة النصوص في إذاعة صنعاء، ثم عين مديراً للبرامج في الإذاعة إلى عام 1980، واستمر في إعداد أغنى برنامج إذاعي ثقافي في إذاعة صنعاء (مجلة الفكر والأدب) بصورة أسبوعية طيلة الفترة من عام 1964 حتى وفاته .

عمل مشرفاً ثقافياً على مجلة الجيش من 1969 إلى 1975، كما كان له مقال أسبوعي في صحيفة 26 سبتمبر بعنوان «قضايا الفكر والأدب» ومقال أسبوعي في صحيفة الثورة بعنوان «شؤون ثقافية».

ويُعد البردوني من أوائل من سعوا لتأسيس إتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، وقد انتخب رئيساً للاتحاد في المؤتمر الأول.

أصدر البردوني خلال مسيرته الأدبية ثماني دراسات، و12 ديواناً، هي وفق الصدور: (من أرض بلقيس)، (في طريق الفجر)، (مدينة الغد)، (لعيني أم بلقيس)، (السفر إلى الأيام الخضر)، (وجوه دخانية في مرايا الليل)، (زمان بلا نوعية)، (ترجمة رملية لأعراس الغبار)، (كائنات الشوق الآخر)، (رواغ المصابيح)، (جواب العصور)، (رجعة الحكيم بن زائد). وقد صدرت هذه الأعمال في مجلدين عن الهيئة العامة للكتاب عام 2002، ثم أعيد طباعتها مراراً.

اكتُشِف عبد الله البردوني عربيا قبل أن يُكتشف يمنيا وقد كانت قصيدته (أبو تمام وعروبة اليوم) هي بوابة العبور إلى عالم الشهرة، حين ألقاها في مهرجان الشعر العربي في الموصل بالعراق عام 1971 وفي بعض أبياتها يقول الشاعر الراحل:

حبيبٌ وافيتُ من صنعاءَ يحملني
نسرٌ وخلف ضلوعي تلهثُ العربُ
ماذا أحدثُ عن صنعاءَ يا أبتي
مليحةٌ عاشقاها السلُّ والجربُ
ماتت بصندوق (وضاح) بلا ثمنٍ
ولم يمت في حشاها العشق والطرب

ويقول كذلك في القصيدة نفسها:

حبيب مازال في عينيك أسئلة
بدو .. وتنسى حكاياها فتنتقب
وما تزال بحلقي ألف مبكية
من رهبة البوح تستحيي وتضطرب
يكفيك أن عدانا أهدروا دمنا
ونحن من دمنا نحسوا ونحتلب
سحائب الغزو تشوينا وتحجبنا
يوماً ستحبل من أرعادنا السحب؟
ألا ترى يا (أبا تمام) بارقنا
(إن السماء ترجى حين تحتجب)

هل انتهى احتضار الأجناس الأدبية بموتها ؟

بقلم: د. رشيد وديجى

جامعة مولاي إسماعيل - مكناس - المغرب

هل مازلنا اليوم في حاجة إلى الحديث عن أجناس أدبية؟ أليست الأعمال الأدبية الكبرى بالنسبة إلينا متفردة، ومن ثم يتعذر تصنيفها في خانات محددة جاهزة؟ أليست الأعمال موجودة بمعزل عن باقي الأعمال الأخرى؟ لماذا لا نعتبر ملحمة ما (أوديسة هوميروس) رواية مغامرات؟ لماذا لا يكون كتاب فكتور هوجو les Contemplations (1856) مثلا سيرة ذاتية ، وليس ديوانا شعريا ؟ ألم يسمي كتابه هذا بـ les Mémoires d'une âme ؟ لماذا، إذن، تقييد عمل ما بهذا الجنس أو ذاك؟ لماذا لا نترك له حرية لا أن يكون رواية، أو مسرحية، أو قصيدة، بل أن يكون و كفى، أي أن يكون بما في حد ذاته فقط ؟ أليس القراء هم وحدهم المؤهلون للحكم على نص ما بأنه مسرحية، أو رواية، أو قصيدة ؟

صحيح أن الأجناس كانت فيما مضى متعددة ومحددة بدقة وصرامة، بحيث لم يكن بالإمكان خلط الكوميديا والتراجيديا مثلا، لكن الشعرية المعاصرة تميل إلى اعتبار مفهوما عتيقا باليا قديما، وتنظر إلى الآثار الأدبية الخالدة من حيث تمردها على كل أصل، وتحررها من كل تاريخ.

يقول خورخي لويس بورخيس Jorge Luis Borges [i] : " ما هو الكتاب إذا لم نفتحه؟ إنه مجرد أوراق مركونة، لكننا إذا قرأناه، فإن شيئا ما غريبا يحدث، إنه يتغير في كل قراءة، لقد قال Héraclite إننا لا نستحم أبدا في نفس النهر مرتين لا مياهه تتبدل، لكن الفطيع هو أننا لسنا أقل قابلية للتبدل من الماء، ففي كل مرة نقرأ كتابا يكون الكتاب قد تغير".[ii]

وفوق هذا فإن نصوصا من نوع خاص تتأبى على التصنيف ضمن خانات أجناسية معينة، ناسفة فردية نقاء الجنس، والحدود الفاصلة بين الأجناس، حيث يختلط فيها السرد الروائي بالكثافة الشعرية، وبالنفس الملحمي، وبالمشهدية المسرحية، وبالبوح الأتوبيوغرافي ....، فكيف سنسمي هذه النصوص؟

هل سنسمي كل منها النصوص Texte أو écriture؟ ونعتقد أن هذا السؤال لا يجب طرحه كما فعل رولان بارث Roland Barthes [iii]، لا نعتقد هذا بسبب وجيه هو الخلط بين الأجناس الأدبية، وتدمير الحدود بينها معرفة قبلية بهذه الأجناس.

لا يمكن خرق معيار أو نسف تقليد إلا إذا استحضرنا ولو في اللاوعي هذا التقليد، لذلك، فالأجناس الأدبية موجودة حقا وبما لا يقبل الجدل، فإذا لم تكن موجودة داخل النصوص نفسها (التقعير) فهي موجودة خارجها أي فيها يسميه Gérard genette جيرار جنيت[iv] بـ Le Paratexte أي النص المحاذي مثل الغلاف، والحوار الصحفي، والمقدمة...، حيث توصف النصوص بأنها رواية، أو مجموعة قصصية، أو دراسة، أو مأساة في خمسة فصول، أو تخييل ذاتي Auto-Fiction.

هذا إذا لم يكن العنوان حاملا للمحدد الجنسي للنص " حكايات ألف ليلة و ليلة"، و"قصة حب مجوسية" لعبد الرحمن منيف، و"قصائد متوحشة" لنزار قباني، و" Les Fables de la Fontaines"، ومن ثم فإن مفهوم الجنس الأدبي يفرض نفسه بالضرورة.

فحتى رولان بارث Roland Barthes نفسه الذي يفرق بين النص المتعدي Texte Transitif أو النص المقرأن Texte Lisible ، أو نص المتعة Texte Plaisir، و بين النص اللازم Texte Intransitif والنص المكتبن Texte Scriptible، وبين نص اللذة Texte de Jouissance، يستحضر ولو في اللاوعي مقولة الجنس الأدبي، فأن تفرق بين نص أو آخر كما فعل بارث ، ألا يعني هذا أنك تجنس كل منهما في خانة جاهزة ؟ يبدو إذن غير ممكن تجنب فكرة الجنس الأدبي ، فكل

خورخي لويس بورخيس

نص يستجيب تصريحا أو تلميحا إلى نوع من القانون الجمالي العام، بل إنما يدعى بالروائع أو الآثار الخالدة و بالكتابات الحداثية نفسها لا تعدو كونها أصداء مباشرة أو غير مباشرة لأجناس أدبية ثابتة على امتداد العصور تسعى إلى دحضها، أو استبعادها، أو تدميرها.

فمن البدهي أن سعيها هذا لا يجعل من مقولة الجنس لاغية باطلة، إن كل نمط كتابي جديد في وقته يتغذى من دينامية هذه الخروق، و التجاوزات، و الابتداعات التي تطور الأساليب، والقوالب، و الأشكال، وبعد أن يبلغ نقطة الذروة فإن نمطا كتابيا جديدا آخر يعوضه تبعا لقانون التطور الأدبي.

ومن ثم فإن الشيخوخة أو أفول الأجناس المفترضة ليس سوى مرحلة من مراحل تطورها، كما أن الجمالية الرومانسية وكذا الطلائع الأدبية في القرن العشرين (الدادائية ، السريالية، المسرح المضاد، اللارواية "الرواية الجديدة، ومسرح الوقعة Happening ليست ظواهر شاذة في تاريخ الأشكال الأدبية، إنها بالأحرى صيغة مختلفة لطرح مشكل الأجناس الأدبية، فالأمر لا يتعلق برفض الأجناس الأدبية بقدر ما يتعلق بمضاعفتها بالتنويع عليها

(قصيدة النثر، والمسرح الملحمي، والتخييل الذاتي، والرواية العجائبية)، لذلك و بدل الاهتمام بتصنيف النصوص في خانات أجناسية متمايزة ومتباينة، يبدو من الأجدر إبراز مابين هذه النصوص من علاقات وتجاذبات وتثابذات، بمعنى آخر، ينبغي الاهتمام بما يدعوه جيرار جنيت Gérard Genette بـ la Transtextualité أي كل ما عبر النصية يجعل نص ما في علاقة جلية أو خفية مع نص آخر.

وقد ميز جنيت بين خمسة أنماط عبر نصية يهمنا منها اثنان هما: v

- التناص L'intertextualité
- النص المتفرع أو النصية الفوقية L'hypertextualité

أما الأول فهو علاقة التحاضر بين نصين أو أكثر أي الحضور الفعلي لنص ضمن نص آخر.

والثاني وهي تعلق نص (ب) ويسميه النص الفوقي L hypertexte بنص سابق (أ) ويدعوه النص التحتي L hypotexte ، بحيث يشتق (ب) باعتباره نصا في الدرجة الثانية من(أ) باعتباره نصا أصليا أو بؤريا.

لكن هل حقا انتهى احتضار الأجناس الأدبية بموتها ؟

إن كل هذه النظريات والمواقف النقدية على رغم اعتراضها على تجنيس الأدب تحيل ضمنيا على مفهوم الجنس الأدبي، وكتاب النصوص الحداثية أنفسهم يستحضرون في أثناء الكتابة تلك المعايير الشكلية، والأجناسية الكلاسيكية التي يدعون أنهم سيخرقونها صحيح إنهم يجربون تقنيات، وأساليب، وقوالب مختلفة، لكن الاختلاف لا يكون إلا تبعا لمعيار مكرس، ثم ألا تعد الكتابة خارج المعيار ذاتها معيارا جديدا سرعان ما سيستنفذ قوته وسحره، وسيندثر ليحل محله معيارا آخر مختلف.

يبدو أنه لا مناص من مقولة الجنس الأدبي إن لم يكن بغاية تكريسها فعلى الأقل بغاية مجاورتها. فكتابات موريس بلانشو النظرية نفسها التي يبدو أنها دقت آخر مسمار في نعش هذه المقولة، تنطوي خفية أو تمويها على أجناس أدبية

جيرار جنيت

رولان بارث

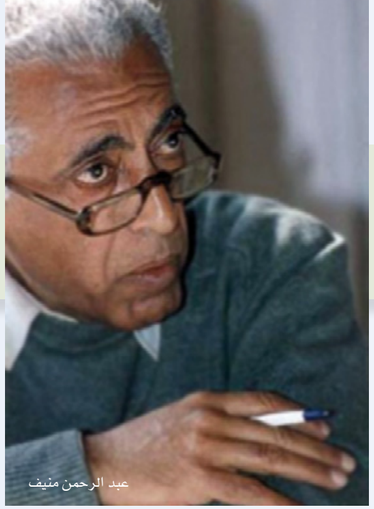

عبد الرحمن منيف

قياسية فن الرواية، والشعر، والرحلة، والمذكرات، و تقليعة مسرح العبث، أو الرواية الجديدة في فرنسا ما هي إلا تطوير للمسرح الكلاسيكي، و تطوير للرواية البلزاكية، وهذه الرواية الجديدة ذاتها سرعان ما ابتذلت لتحل محلها تقليعة أخرى تدعى الرواية الجديدة الجديدة، ثم ألم يستسلم أصحاب هاتين التقليعتين أنفسهم في نهاية مشوارهم الإبداعي إلى إغراء الكتابة الروائية المعيارية ، التي سبق لهم في البداية أن أعلنوا تمردهم القوي عليها؟

وإدوار الخراط نفسه هذا المبدع المهووس بالتجريب تنظيرا و ممارسة، ألا تحضر آثار الروائي، و الشعري فيما يدعوه "الرواية- القصيدة"، مثلما تحضر فيما سبق لـ جون إيف تاديه Jean Yves Tadie أن دعاه Le Récit Poétique vi؟

الحواشي:

i- خورخي لويس بورخيس (Jorge Luis Borges)، (1899 - 1968) كاتب أرجنتيني يعتبر من أبرز كتاب القرن العشرين بالإضافة إلى الكتابة فقد كان بورخيس شاعرا وناقدا وله عدة رسائل.

ii- Jorge Luis Borges، Conférences، Collection، Folio ، N 92، Gallimard، Paris، 1985، P157.

iii- ارتبط اسم الناقد والكاتب الفرنسي رولان بارت بحركة النقد الجديد وبالمدرسة البنيوية. وتتميز أعماله بأنها شديدة التنوع، وهي أكثر من خمسة عشر كتاباً أصبحت معروفة للقارئ العربي، منها (درجة الصفر للكتابة) و(ميثولوجيات) و(نقد وحقيقة) و(لذة النص) و(هسهسة اللغة). وأخيراً (خطاب عاشق).

iv- ويعد الناقد الفرنسي "جيرار جينيت" (1930) من أهمّ النقاد الذين أثروا في الحياة الثقافية والأدبية في العالم، ولاسيما في أوروبا.

نشر جيرار جينيت كتابه الأول (أشكال I) عام 1966، و(أشكال II) عام 1969، حيث حاول أن يؤسس فيها نظريته في الشعرية معتمداً بصورة أساسية على الأساس الذي انطلق منه البنيويون وهو اللغة. وفي كتابه الثالث (أشكال III) الذي نشره عام 1972، أكّد على الخطاب السردي ضمن قدراته وحدوده، ومغامراته، وقد اختار للقيام بعمله هذا رواية (البحث عن الزمن الضائع)، ورأى فيها المثال النموذجي للسرد الكلاسيكي. ويشكل كتابه (Minologiques) عام 1976 نقطة هامة في مسيرته النقدية عندما بدأ يهتم بصورة أساسية بالكلمات، ويتساءل إذا كان للكلمات أن تشكل صورة عن الأشياء. وقام في كتابه (طروس، 1982) بعملية جرد للأعمال الأدبية التي تستند إلى أعمال أدبية أخرى، سواء عبر محاكاتها أم عبر تحويلها، في حين أن كتابه (عتبات، 1987) يهتم كثيراً بما يسميه جينيت (Paratextes- مرافقات النص) في موازاة ذلك يعدّ عمل (عودة إلى خطاب الحكاية، 1983) مراجعة نقدية على كتابه خطاب الحكاية، وهو جزء من (أشكال III) وإضافة من موضوعة السرد، يرصد جديد السرديات في الفترة ما بين الكتابين. ويكاد عمله الأخير (أشكال IV، 1999) يتوج حياته الأدبية والنقدية والتنظيرية.

v- حدد جيرار جنيت Gérard Genette موضوع الشعرية في كتابه "طروس Palimpsestes " في ما سماه بالعبر- نصية Transtextualité، وقد ميز فيها بين خمسة أنماط هي: التناص Intertextualité والنص المحاذي Paratexte والنص المتفرع Hypertextualité وجامع النص Architextualité ، بالإضافة إلى الميتانصية Métatextualité . يرجى الاطلاع في هذا الإطار على :

Gérard Genette – Palimpsestes : La littérature au second degré – seuil 1982.

iv- Tadié Jean Yves: Le récit poétique، PUF.Paris، 1978.